يجون علينا بقولهم اننا نريد ان ننتقص العرب في مدنيتهم وعلومهم على ان التهمة والاقساط في القول ، لاسيما لدى النظر في مباحث التاريخ ، لن تتوافر اسبابها الا بتوافر اسباب الاستقلال في الرأي . ولهذا نختم هذا البحث سائلين كما سأل أرسطوطاليس اخوانهُ في التلمذة « اذا اختلف افلاطون والحق ، فايهما اولى بالمحبة »

برلين اسماعيل مظهر

كتّاب العهد الماضي

— تمهيد —

كتب استاذنا الدكتور طه حسين فصلاً ممتعاً في المقتطف عن « النثر العربي في نصف قرن » تناول فيهِ طائفة من المسائل التي تعني مؤرخ الآداب حين يراجع اساليب الكتّاب واتجاهاتهم المتقلبة في الخمسين سنة الماضية ، وأعفى نفسهُ من التحدث الى القارئ « عن شخصيات الكتّاب الناثرين في مصر وغير مصر وآثار هذه الشخصيات في اساليبهم النثرية » وقد رأيت بهذه المناسبة أن اتكلم عن شخصية واحدة من شخصيات الكتّاب في العهد الماضي ، وهي شخصية رجل عرفتهُ وصحبتهُ واخذت عنهُ : في شخصية المرحوم الاستاذ الشيخ محمد المهدي بك ، المتوفى في منتصف يناير سنة ١٩٢٤

— حياتهُ وآراؤُهُ —

ولد المرحوم الشيخ محمد المهدي في قرية من قرى مديرية الشرقية ، وطلب العلم في الجامع الازهر وفي مدرسة دار العلوم ، وقام بطائفة من الاعمال العلمية اهمها تدريس آداب اللغة العربية بمدرسة القضاء الشرعي والجامعة المصرية ، واشهر الاساتذة الذين تلقى عنهم : الشيخ محمد عبده والشيخ حمزة فتح الله ، واشهر من اخذ عنهُ من رجال الادب : الدكتور طه حسين ، ولهُ معهُ مواقف في النزاع بين القديم والجديد كانت تصل احياناً الى الجدل العنيف

كان الاستاذ المهدي اول من تلقيت عليهِ الادب في الجامعة المصرية ، وقد صحبتهُ فيها اربع سنين ، وسمعت محاضراتهِ عن عهد الجاهلية ، وعهد بني امية ، وعصر بني العباس ، وخصَّ الادب في الاندلس بسنة كاملة كانت من اخصب سنيهِ في العهد

الاخير ، وكنت أصل جناحه بعد المحاضرة حتى يصل الى المحطة ، وقد كان رحمهُ الله يؤثر سكنى الضواحي على سكنى العاصمة ، فكانت الفرص كثيرة لمخاطبته في شتى المسائل وشجون الحديث ، ويمكن الحكم بانهُ كان من نوادر الاساتذة الذين فهموا روح هذا العصر ، واستمعوا نداء هذا الجيل

كان يؤثر اللغة الفصيحة في جميع محادثاته ، وكان يتحرز من اللحن ويتوقاهُ كما يتوقى الحر مدارج الهوان ، وكان يرى انهُ من الممكن ان نتفاهم مع جميع الطبقات باللغة الفصيحة ، ولا يكلفنا ذلك اكثر من اختيار الالفاظ المألوفة حين نحاور من لا يفهمون الجزل من الكلام الفصيح ، وكان كثيراً ما يتهكم بعلماء الازهر حين يقولون وهم يعربون « مرفوعٌ وعلامةُ رفعهِ الضمةُ الظاهرةُ » فكان يقول : ماذا عليهم لو قالوا : « مرفوعٌ وعلامةُ رفعهِ الضمةُ الظاهرةُ » وقد نشأ عن حرصهِ على اللغة الفصيحة أنْ ذاعت عنهُ الفكاهات والملح بين زملائهِ وبين تلامذتهِ ، فهذا يقول إنهُ اختلف مرة بسبب لغتهِ مع سائق الترام ، وذاك يقول انهُ ساق احد الباعة الى القسم بعد ان تلاحيا : اولهما بلغة السوق وثانيهما بلغة القرآن !

وكان من رأيهِ انهُ يجب ان لا تهجر الالفاظ العربية في الكتابات الادبية والعلمية والفنية ، لان غرابة الالفاظ لم تنشأ الا حين هجرها الادباء والعلماء والفنيون ، فلو اننا أحيينا في كل رسالة كلمة او كلمتين لبعثنا ميت اللغة واثرنا دفين التعابير ، وكان لنا من ذلك غناء اي غناء

كان رحمهُ الله من المجددين ، مع شيء من الحيطة والحذر ، فربّى ابنتهُ تربية حديثة ومكّن لها من ورود مناهل العلم في الغرب ، وزار بنفسهِ العواصم الاوربية ، وان لم يتكلم غير العربية ، وكان لكل مدينة في نفسهِ تقدير خاص ، ولا يزال تلامذتهُ يتندّرون بقولهِ في وصف احدى الحواضر الاسبانية « تُصَرُّ في منديل » ! وتزوج في اخريات ايامهِ امرأة جميلة ، وقد حدثني رحمهُ الله انهُ اشترط « ان يرى وجهها وان يسمع صوتها » اذ كان يعتقد انهُ لا قيمة للوجه الحسن بدون الصوت الجميل ، وكان كثيراً ما يسوقهُ مثل هذا الحديث الى الكلام عما فعلتهُ الخنساء حين اخبرت من جاء يخطبها لنفسهِ ، فلما زهدت فيهِ قالـــ

وتزعم انني شيخٌ كبيرٌ فهل حدثتها اني أمن امسِ ؟

وكان الاستاذ يقول وهو يؤكد وجوب اختيار الزوجة « انك لا تشتري حزمة بقل قبل ان تقلبها فكيف تأخذ العشيرة قبل ان تعرفها » وكان يأسف على حرمان المرأة من النهوض ، و يتعجب من استصغار حملة الادب ورواة الشعر لشأن المرأة ، وغمطهم من حقها ، واهمالهم الادب اذا كان من جانبها ، وقلة عنايتهم بتدوينه اذا كان مرويًا عنها ، ويقول « فان لم يكن ذلك كذلك فما بالنا نسمع من اسماء الشواعر في الجاهلية العدد العديد ولا نرى لواحدة منهن ديوانًا حافلاً مجموعًا مرتبًا مشروحًا كما نرى ذلك لاكثر الشعراء ، فقد عُني العلماء بدواوينهم روايةً وشرحًا وترتيبًا ومفاضلة ، وبذلوا وسعهم في اظهار معانيها المخترعة ومقابلة بعضها ببعض ، وتأخذ المشترك منها والموازنة بين المأخوذ والمأخوذ منهُ ، ومقارنة الديباجة والوضوح والمتانة والسلاسة والسلامة من عيوب اللفظ وما شاكل ذلك بنظائرها من كلام الشاعر الآخر ، ولم يكن لعلماء اللغة ورواتها مثل هذه العناية لشاعرة من شواعر الجاهلية فيما اعلم ، حتى انهم الذين تخيروا الشعر الجيد منهم وجمعوهُ في ديوان ليحفظ كأنهم لم يريدوا ان يختاروا قصيدة لامرأة لتكون بجانب قصائد الرجال » وكان يعزز رأيهُ هذا بان ابا زيد القرشي قد اختار تسعًا وار بعين قصيدة من القصائد الطوال ولم يجئ فيها بواحدة لامرأة ، لا من الجاهلية ولا من الاسلام ، مع ان في كلام ليلى العفيفة وجليلة بنت مرة والخنساء وليلى الاخيلية ما لا يذكر بجانبهِ شعر كثير من اصحاب المذهبات والمشربات والملحمات والمنتقيات ، وان المفضل الضبي اختار مائة وعشرين قصيدة وقطعة ليس فيها الا خمسة ابيات لامرأة مجهولة من بني حنيفة ، ثم يقول « فهذه مكانة شعر النساء في نظر المؤدبين والرواة والعلماء في ذلك الزمن ، وكأنما الذين جاءوا بعدهم احتذوهم حذو النعل بالنعل ، فما رأيتهم دوّنوا شعر ليلى الاخيلية في ديوان كما دونوا شعر المجنون ، ولا شعر علية بنت المهدي كما دونوا شعر ابي العتاهية ، ولا دونوا شعر ولادة بنت المستكفي كما دونوا شعر ابن زيدون ، وقس على هذا سائر الفضليات بعدهن ، خصوصًا بعد سقوط بغداد ثم أفول قرطبة . فان شعر المرأة في هذا الزمان قد اختبأ تحت جهالات الرجال ، ولم يظهر منهُ الا بروق لا تلبث ان تزول » وقد وصل بدراستهِ الدقيقة الى ان الفروق بين اشعار الرجال واشعار النساء من جهتين : الاولى من جهة صفة الشعر ، والثانية من جهة فنونهِ . وملخص الجهة الاولى ان شعر المرأة يجلي اخلاقها اكثر مما يجلي شعر الرجل اخلاقهُ ، وانهُ يدور حول موضوعها ولا يكاد يخرج عنهُ وانهُ بعيد عن الحوشية قريبٌ من الفطرة ومتناول العامة ، وانهُ اصرح من شعر الرجل لانها

لا تكاد تبقي شيئاً في نفسها ، وانهُ اشد اثراً في النفوس من شعر الرجل وخصوصاً ما كان منهُ في الفجائع . واما من جهة الفنون فقد هجرت المرأة وصف الجمال ومجالس الشراب لغلبة الحياء عليها ولاستقباح ذلك منها ، وان مادتها اغزر من مادة الرجل في الرثاء

— اسلوبهُ في الالقاء والانشاء —

كان رحمهُ الله من ابرع الناس في الالقاء ، واجملهم في الاداء ، كان فصيح المنطق حلو اللسان ، لا يملُّ حديثهُ ولا خطابهُ ، وان طال ، وكان ينشد الشعر كما يجب ان ينشد وكما يتمنى قائلهُ ان ينشد . ولقد كان ينشد الشعر وهو يحاضر في الجامعة المصرية فيقع من نفسي ومن أنفُس السامعين اجمل موقع ، فاذا عدت الى الشعر نفسهِ في مظانهِ وجدتهُ دون ما سمعت في الروعة والجمال ، وعلمت ان لاسلوب المحاضر في الاداء اثراً كبيراً في تكييف النثر الجيد والشعر البليغ

اما منهجهُ في الانشاء فهو إيثار الصراحة والوضوح والجلاء ، واسلوبهُ في الكتابة من الاساليب النقية الجميلة ، وهو عندي أبرع كتَّاب مصر في المدة التي ارَّخها استاذي الدكتور طه حسين . لولا انهُ كان من المقلِّين

— مثال —

اراد رحمهُ الله ان يحدد (معنى الادب) فقال :

« الادب مصدر ادب الانسان فهو اديب ، ومثلهُ ارب فهو اريب ، اذا صار فيهِ خلق يدعو الى المحامد ، و ينهى عن المقابح ، والتأديب التقويم على اشرف الخلال ، ومنهُ الحديث : ادبني ربي فأحسن تأديبي . والادب والتأديب بهذا المعنى يكادان يدخلان في كل شيء . ولهذا قسموا الى اقسام لا تكاد تحصر ، فكانوا في النفس والدرس والمعاملة والمعاشرة وفي طبقات الناس ، وفي الام وفي الاكل والشرب والنوم والملباس والحديث الى غير ذلك من كل ما يعوزهُ التقويم . وقد افرد لهُ العلماء التآليف في فنونهِ الكثيرة وضروبهِ المختلفة ، وقام المصلحون في كل امة بالدعوة اليهِ على وجههِ الصحيح . ولشعب هذه الاقسام وصعوبة لمح الذهن لها جميعاً انحازت للادب في الاذهان معان عدة متوزعة في اذهان الناس ، فاذا اطلقت كلمة الادب في محفل من غير اضافة ولا قرينة ذهبت الظنون فيها مذاهب وفهمها كل قوم على مقدار ما تبين لهم من معناها بعُرف او دين او قانون او اصطلاح

« وقد كانت هذه الحال عند العرب انفسهم فانّا رأيناهم يطلقونهُ على معانٍ عدة لا تكاد تخرج عن المعنى العام لها . فانهم يطلقونهُ على الظرف ، و يريدون منهُ تارة البراعة وذكاء القلب ، وتارة الحذق بالشيء ، وقد يريدون حسن الهيئة وحسن التناول ، وربما ارادوا بهِ الظرف في اللسان وهو ضرب من الادب ، ومنهُ قول عمر رضي الله عنهُ في الحديث : اذا كان اللص ظريفًا لم يُقطع . ومعناها : اذا كان بليغًا جيد الكلام احتج عن نفسهِ بما يسقط عنهُ الحد . ومثل ذلك اطلاقهُ على الكياسة . وقد جاء في حديث ابن سيرين : الكلام اكثر من ان يكذب ظريف . ومعناهُ : ان الظريف لا تضيق عليهِ معاني الكلمات فهو يكني و يعرّض ولا يكذب . وقد اجتاز العرب هذا الحد ، واطلقوهُ على الرياضة والخضوع في الدواب ، ومنهُ قول مزاحم العقيلي :

وهنّ يُصرفن النوى بين عالجٍ ونجران تصريف الاديب المذلل

فقد سمّي الجمل اديبًا

«واذا كانت هذه المعاني واشباهها في لسان العرب فليس من البدع ان يذهب مدونو الادب في تدوينهِ طرائق ، كلٌّ على حسب المعنى الذي مثل في ذهنهِ : فمن نحا بهِ نحو الخلق وطهارة النفس وتهذيبها من ادران الرذائل ألف في مكارم الاخلاق - وسمي تأليفهُ ادبًا . ومن نحا بهِ منهم نحو حسن التناول ألف في محاسن المعاشرة والتعامل ، ومن نحا بهِ منهم نحو الظرف في اللسان وهو البراعة وذكاء القلب ألف في النوادر والاجوبة المسكتة والطرائف المستملحة ، وسمى ذلك ادبًا . ومن نحا بهِ منهم نحو الصواب في المنطق وصون اللسان عن الخطأ في كلام العرب ألف في الفنون العربية ، والناحون هذا المنحى هم حملة اللسان الينا وهم السواد الاعظم من مؤلفي الادب ، وهم طوائف كثيرة ، نظرت كل طائفة الى حال من احوال اللفظ العربي وألفت فيهِ : فنظرت طائفة اليهِ من جهة معانيهِ فدوّنت معاني الالفاظ ، وهم علماء متن اللغة وطبقتهُ ثقة من جهة هيئتهِ وصورتهِ فألفت علم الصرف ، وتتبعهُ قوم من جهة انتساب بعضهِ الى بعض بالاصالة والتوليد فألفوا علم الاشتقاق ، وتأملهُ آخرون من جهة تركيبهِ واحوال اواخر مفرداتهِ في التراكيب فألفوا علم النحو — واتجهت طائفة اليهِ من ناحية الاسلوب ومطابقتهِ لمقتضى حال الخطاب فالفت علم المعاني . وتفقدهُ آخرون من جهة مراتب وضوحهِ فألفوا علم البيان ، وبهر قومًا محاسنهُ اللفظية والمعنوية فألفوا البديع . وولع قوم بالموزون منهُ فألفوا العروض والقافية